اللغة العربية

دورها وأهميتها في القرون الوسطى وفي أيامنا الحاضرة

الدكتور بيلا وسكي

جامعة فارسوفيا

ترجمة وتحليل الاستاذ محمد بن زيان

تحت هذا العنوان وفى هذا العدد من مجلة « اللسان العربي » نشرنا باللغة الفرنسية ـ نقلا من البولونية ـ مقالا ممتعا بقلم الدكتور بيلا وسكي رئيس قسم اللغة واللهجات العربية والاسلام بجامعة فرسوفيا .

ومن اهم ما ابرزه فى هذه الدراسة القيمة عن تطور لغة الضاد انها احدث اللغات السامية واعظمها ثروة ، وقد تحولت بصورة مدهشة من لهجة كان البدو يتكلمون بها فى صحراء شبه جزيرة العرب الى لغة ثقافية وحضارة وعلم فانتشرت حيثما انتشر القرآن الكريم والاسلام حتى اضحت هي اللغة القومية والرسمية او على الاقل لغة الدين فى الامبراطورية العربية الشاسعة الاطراف من الصين والهند شرقا الى محيط الاطلس واسبانيا غربا .

والدكتور بيلاوسكي شديد الميل الى النظرية الحديثة التي ترجع اصل لغة القرآن الى نجد بدلا من مكة وان كان النحاة وكل من تبعهم اجمعوا على ان لهجة قريش هي التي كانت اصل العربية ، معللا ذلك بازدهار الشعر الجاهلي فى الربوع النجدية وحيوية اللغة فيها وفصاحة اهلها وبلاغتهم .

وعلى كل فان هذه اللغة التي طالما بقيت على الفطرة اصبحت منذ القرن الثامن الميلادي موضوع البحث والدراسة وكان الباعث على ذلك فى المرحلة الاولى هو الحرص على الضبط والتدقيق فى تفهم كلام الله وشرحه فكان ارتباط علمي اللغة والدين وثيقا لذلك السبب ، ثم ما لبث ان فك هذا الربط فاستقل علم اللغة وانشئت له المدارس والمراكز فاشتهرت من بينها فى القرن التاسع للميلاد خاصة البصرة والكوفة فى العراق ، وقد تميز فقهاء اللغة فى البصرة بطريقة كانت تغلب عليها الصبغة النظرية بينما كان مذهب الكوفيين يكتسي صبغة تجريبية فكانوا ـ مثلا ـ يكثرون من جمع العناصر المستمدة من اللهجات لتعزيز وجهة نظرهم ..

ولقد نشا من هذا التنافس ازدهار فى علم اللغة وتطور اللغة العربية لم يسبق له نظير ، وظهر من بين اعلامه **الخليل ابن احمد** صاحب أول معجم وهو « كتاب العين » ، **وسيبويه** مؤلف « الكتاب » وهو من اعظم ما ظهر من المؤلفات فى النحو كما يدل على ذلك تعدد شروحه وبقاؤه حتى الآن اساسا من اسس دراسة النحو .

وقد اتبع فقهاء اللغة فى وضع كتبهم نظما مختلفة اهمها ثلاثة :

اولا ـ النظام السيميائي المرتكز على جمع المترادفات حول موضوع ما كالخيل والابل والنخيل والصحراء ...

ثانيا ـ النظام المرتكز على مخارج الصوت واللفظ كما هو مطبق فى كتاب « جمهرة اللغة » لابن دريد (المتوفى سنة 934 ميلادية) وفى « تهذيب اللغة » **للازهري** (المتوفى سنة 980 م) وكان هذا المؤلف الاخير من امهات كتب اللغة ومن المصادر

الكبرى التي اصبحت منهلا للمعاجم الموضوعة بعد ذلك مثل « لسان العرب » **لابن منظور** (القرن الثالث عشر بعد الميلاد) الذي رتبت فيه الكلمات ترتيبا الفبائيا لكن ابتداء من اواخر الحروف .

ثالثا ـ النظام المرتكز على الترتيب الالفبائي، وقد ظهر لاول مرة في جزء فقط من اجزاء « جمهرة » ابن دريد ـ ثم في « تاج اللغة وصحاح العربية » المعروف « بالصحاح » **للجوهري** (المتوفى سنة 1003 ميلادية ، ثم في « مقاييس » اللغة **لابن فارس** المتوفى سنة 1008 ميلادية .

ومن اشتهروا في الاندلس وعرب الاسلام من علماء اللغة **ابن سيده** المتوفى سنة 1065 واضع « كتاب المخصص في اللغة » و « كتاب المحكم والمحيط الاعظم » وهذا المعجم الاخير لم يطبع منه الا ثلاثة اجزاء وهو مرتب ترتيبا صوتيا على غرار طريقة الخليل .

كما اشتهر بعد ذلك ـ في القرن الثامن عشر ـ **الزبيدي** صاحب « تاج العروس » الذي يعتبر ركنا من اعظم اركان اللغة العربية .

بعد هذه النظرة الموجزة عن الدراسات اللغوية وما انتجه اللغويون ـ خصوصا ـ في القرنين التاسع والعاشر للميلاد تخلص الدكتور بيلاوسكي الى موضوع تعريب اقاليم الامبراطورية الاسلامية وانتشار الفصحى واللهجات العربية ، فبين كيف راحت لغة القرآن تغزو غيرها من اللغات وتحل محلها فاضمحلت امامها الصابية والمينية في جنوب الجزيرة ، والارامية في الشام وفلسطين والعراق ، والقبطية واليونانية في مصر على ان حركة التعريب اصطدمت ببعض المقاومة لدى المسيحيين السوريين والاقباط فلم يتم تعميم استعمال العربية بينهم الا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين .

اما في بلاد الفرس فقد اخذت لغة الضاد في الانتشار منذ الفتوحات الاسلامية الاولى واستمر استعمالها مع ما حتى القرن العاشر للميلاد حيث ظهرت حركة مقاومة تهدف الى احياء اللغة الفارسية التي استعادت مكانتها القومية في الادب والشعر خصوصا دون ان تستطيع اقصاء العربية في المجالات الديني والقانوني والعلمي .

واما في المناطق الشمالية من افريقيا فقد لاقى التعريب صعوبات تعود اسبابها الى عوامل جغرافية واجتماعية ولا سيما في النواحي الجبلية حيث تعيش القبائل البربرية متشبثة بعوائدها ولهجتها التي لا تخلو من الحيوية .

ولما فتحت اسبانيا في القرن الثامن (711 م) انتشرت اللغة العربية بين اهاليها من عرب ومستعربين فازدهرت وتطورت هناك مع ازدهار العلوم والفنون وتطورها العظيم الى ان حلت سنة 1492 التي انهزمت فيها آخر امارة عربية .

ومن الشمال الافريقي ايضا انتقلت العربية الى جزيرة مالطة حيث تطورت وصارت تكتب بالحروف اللتينية فكانت اصلا للغة القومية التي ما زال اهل مالطة يستعملونها الآن .

وهذا الاشعاع العظيم الذي عرفته اللغة العربية في القرون الوسطى لم يعد سببه الى انتشار الاسلام فقط بل اننا نجد له سببا آخر في المزايا الخاصة التي تتمتع بها هذه اللغة الممتازة بثروتها وحيويتها وايجازها ودقتها الامر الذي جعلها تقوم بدور عظيم في مجالي العلم والثقافة طوال حقبة القرون الوسطى . ولئن فقدت بعض نفوذها ابتداء من القرن السادس عشر لما اصيب به العرب من انحطاط سياسي وثقافي ، فان هذه الظاهرة لم تكن الا عبارة عن حالة عابرة وغفوة زائلة تمت بانبعاث اللغة العربية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

غير ان تطويرها تطويرا يناسب العصر الحديث لم يكن امرا هينا لما تتطلبه اللغة الناهضة من تنمية في الميدان الحضاري والعلمي ومن خلق مصطلحات جديدة . فبذلت منذ القرن التاسع عشر اقصى الجهود واتخذت جميع الطرق والوسائل من اجل ازدهار العربية في العلوم الفلسفية فغيرت الفاظ واستنبطت اخرى بناء على قواعد الاشتقاق وادخلت غيرها صادرة عن لغات اجنبية . ثم انشئت في القرن العشرين مؤسسات مختصة ونظمت تنظيما . فظهر اول مجمع بدمشق سنة 1919 ثم مجمع القاهرة سنة 1932 واخيرا مجمع بغداد سنة 1947 ، واصبح كل منها يزخر بالعمل في خدمة اللغة العربية والادب والثقافة ونشر المؤلفات القديمة التي ما زال الكثير من مخطوطاتها يعلوه غبار الاهمال والنسيان .

على ان اشغال هذه المؤسسات مرتكزة خاصة حول اللغة والعمل على توحيد مصطلحاتها ، وقد اصبح اقطاب من الاختصاصيين في العالم العربي كله يشاركونها في ذلك . ولكل من هذه المجامع نشرة دورية تصدر مرة في كل ثلاثة اشهر او مرتين في السنة

محتوية على ما حصل عليه من نتائج العمل وعلى قوائم مصطلحات محدثة ودراسات خاصة باللغة الفصحى واللهجات العامية .

ويمكن القول من الآن ان لغة الضاد قد واجهت العديد من انواع الصعوبات دون أن يشوبها شائب العناصر الاجنبية وهي محافظة على شخصيتها وعلى كل بهائها فلا تباين بين العربية الحديثة والقديمة وقد جددت ونميت على أساس نفس القواعد التي وضعها سيبويه المتوفى في سنة 792 م في مصنفه « الكتاب ».

وكان من الطبيعي ان يحدث بعض التطور في تركيب اللغة العصرية وقد حذفت منها التعابير المماتة وتوسعت ثروة مصطلحاتها ، حتى اصبحت اليوم قادرة ومقدمة على مضاهاة سائر اللغات العالمية في الميدان الدولي ، وقد اخذت مكانتها ـ مثلا ـ في منظمة اليونسكو كلغة رسمية .

وهي اللغة القومية لازيد من مائة مليون عربي يستعملونها في التاليف الادبي والعلمي وفي الادارة والصحافة والاذاعة فتشكل الرباط الوثيق الذي يربط بعضهم ببعض ويسهل تحقيق وحدتهم الوطنية .

ويوجد في الاقطار العربية بجانب الفصحى لهجات عامية يرجع أصلها الى اللهجات التي كان يتكلم بها عرب شبه الجزيرة الا ان كل واحدة منها طبعت بطابع خاص حسب العوامل اللغوية المحلية التي اثرت عليها فكان منها العامل الارامي او القبطي او البربري .. وهي الآن تتاثر ايضا باللغات الغربية على ان ارتباطها المتين بالعربية الفصحى يجعلها تتقوى بها وتستمد منها ما ينقصها من المفردات وان كانت هذه اللهجات الاقليمية غير مستعملة لا في الادارة ولا في الادب باستثناء بعض المؤلفات الفلكلورية او بعض ما ياتي احيانا من حوار في الاقاصيص والروايات . ومن ذلك يتضح وجود ازدواجية لغوية في كل بلد عربي . فهناك :

اولا ـ لغة رسمية وطنية وهي التي يكتبونها ولا يتكلمون بها الا في بعض الاحيان ، وقد يحدث ذلك مثلا في الجامعات وبمناسبة الاجتماعات الرسمية وعند انعقاد المؤتمرات بين العرب خاصة .

ثانيا ـ اللهجة العامية التي تختلف شيئا ما مع اختلاف البلاد العربية والتي ربما تميزت ببعض الاناقة عندما تتكلم بها النخبة المثقفة .

اما الدول التي تستعمل العربية كلغة رسمية فهي :

المملكة العربية السعودية ، والجمهورية اليمنية، وجمهورية جنوب اليمن ، والكويت ، والامارات مثل البحرين وعمان ، وسوريا ، والعراق ، والمملكة الاردنية الهاشمية ، وفلسطين العربية ، ولبنان ، والجمهورية العربية المتحدة ، والسودان ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر ، واليمغرب ، وموريطانيا .

واما البلاد التي انتشرت فيها العربية انتشارا هاما فهي : السودان الغربي وجيبوتي وزنجبار ، وهي معروفة ايضا كلغة دين في بعض الاقطار الاسلامية مثل ايران وافغنستان والباكستان واندونيسيا .

وكان للعربية تاثير كبير في المجال الديني والعلمي على لغات اخرى منها الفارسية والتركية والاردية ، وكلها كانت وما زالت تكتب بالحروف العربية باستثناء التركية التي اتخذت الحروف اللتينية منذ 1928 .

وختاما يجدر بالذكر ان نشير الى ان الحروف العربية قد قامت بدور هام في الفن العربي الاسلامي كعنصر للزخرفة .